أبو القاسم الشابى
فى ذكرى رحيله الخمسين

فى التاسع من شهر أكتوبر ١٩٨٤م حلت الذكرى الخمسون لرحيل الشاعر أبى القاسم الشابى وهى مناسبة جديرة بأن تثير فينا الاهتمام من جديد بدراسة شعر هذا الشاعر الذى أثبتت السنوات التى مرت بعد رحيله والتى كانت بمثابة اختبار حاسم لأصالته الشعرية أنه واحد من أبرز العبقريات الشعرية العربية فى العصر الحديث. وكثيرون من الشعراء ينالون فى حياتهم قدرا من الشهرة أو الحضور الأدبى إما بسبب شاعريتهم الفريدة أو بسبب نفوذهم إن كان لهم نفوذ أو ذكائهم الاجتماعى وبعد أن تطوى صفحة حياتهم وتضعف المؤثرات التى لا تنبع من صميم التقدير الأدبى تنحسر عن أكثرهم هالة البريق ويواجهون التاريخ بالقوة التى يمنحها لهم عملهم ويصبح شعرهم وحده شهادتهم التاريخية أمام الأجيال التى لها حرية أن تقبل أو ترفض هذا الشعر وإذا كان النقد الأدبى كثيرا ما يقوم بإصدار أحكام عامة وزائفة متأثرا بعوامل كثيرة على شعر المرموقين من الشعراء فإن الرؤية النقدية هى الأخرى عرضة للنيل منها كلما تقدم الزمن وتطورت المفاهيم وتغيرت الأوضاع وبهذا نستطيع أن نقول بإن العنصر النهائى فى مجال الحكم على الشاعر هو شعره فقط وبهذا المعيار يتألق أبو القاسم الشابى فى سماء حياتنا الثقافية كصوت شعرى وصل إلى قمة الصدق مع نفسه ومع عصره

وبالأخص مع هموم أمته. وأبو القاسم الشابى واحد من هؤلاء العباقرة من الشعراء الذين قدر لهم أن يلاقوا حتفهم فى عنفوان الشباب مثل طرفه بن العبد وأبى فراس الحمدانى وشيلى وكيتس وبيرون وروبرت بروك وبدر شاكر السياب وربما كانت أقدارهم قد زودتهم بالحظ الذى يمكنهم من حفر أسمائهم فى سجل الخلود قبل أن يحصدهم الموت فيجنبهم الفشل أو المرارة أو الصمت الكريه. وإذا كان لنا أن نلقى نظرة على حياة أبى القاسم الشابى فإننا نفعل ذلك لكى نفهم شعره الذى هو ثمرة حلوة لحياة بالغة المرارة.

ولد أبو القاسم الشابى عام ١٩٠٩م فى مدينة «توزر» بتونس فى أسرة متوسطة وكان أبوه أحد علماء الأزهر الشريف ثم عمل قاضيا شرعيا وكان تقيا واعيا عطوفا على أهل بيته وتحدث أبو القاسم الشابى عن أثر أبيه فى حياته، فقال عنه: «إنه أفهمنى معانى الرحمة والحنان وعلمنى أن الحق خير ما فى العالم وأقدس ما فى الوجود» ويبدو أن هذه التربية الأخلاقية قد زرعت فى نفس الشاعر وشعره فضائل الاهتمام بالآخرين والإحساس بهمومهم ومشاكلهم، وفى عام ١٩٢٠م رحل أبو القاسم الشابى إلى تونس العاصمة للدراسة فى جامع الزيتونة حيث أولع بالشعر والأدب العربى واستطاع فى وقت مبكر أن يحصل ثقافة كبيرة فى هذا المجال وتفتحت بواكيره الشعرية تعبيرا عن موهبة شعرية كامنة. وكان شديد الولع بالقراءة والاتصال بالأدباء فى المشرق العربى مهتما بالإصلاح الأدبى والاجتماعى حريصا على التجديد معتزا فى الوقت نفسه بتراثه العربى القديم.

وكان حماسه لهذا التراث هو الذى جعله يكتب محاضرته «الخيال الشعرى عند العرب» والتى صدرت فى كتاب عام ١٩٢٨م ولكن الأيام تعاجله وهو فى غمرة إعداد نفسه لعطاء أدبى طويل بالمصائب، ففى عام ١٩٢٩م توفى والده الذى كان يحبه حبا شديدا واضطر أن يعود إلى مسقط رأسه ليرعى أسرته التى أصبح هو عائلها الوحيد ولكن الأيام كانت لا تزال تصوب إليه سهامها فقد أصيب بعد وفاة أبيه بداء الصدر ربما بسبب الحزن الشديد. ولزم الشاعر قريته لا يجد سوى الشعر طبيبا ورفيقا ورسالة حياة وعكف على إعداد ديوانه للنشر فى القاهرة ولكن الموت أنهى هذه الحياة التى كان الألم محورها ونارها التى اندلعت فى كثير من القصائد فأحالت الحياة بعده إلى نور من الوعى الشامل بالقيم السامية التى عاش لها أبو القاسم الشابى وهى الحرية والجمال والأخوة والإنسانية والعدل وتوفى الشاعر العبقرى فى ٩ أكتوبر ١٩٣٤م وإذا كانت الحياة قد غادرت جسمه الهزيل الشاحب فقد انتقلت هذه الحياة إلى شعره لتسكنه إلى الأبد.

شعـــره

لم يخلف أبو القاسم الشابى سوى ديوان «أغانى الحياة» الذى يضم إحدى وتسعين قصيدة ومقطوعة تكاد كلها أن تكون من نسيج فنى واحد لأنها كتبت فى فترة قصيرة فلم تتح له الحياة أن يمر بمراحل فنية متعددة. وهذه القصائد والمقطوعات يتوزعها الاحساس العميق بالألم والشقاء الإنسانى الذى كان الشاعر يحيا فى أتونه الملتهب وكذلك الإحساس بالجمال كما يتبدى فى الطبيعة والمرأة والطفولة ووطنية الشاعر الغامرة وحزنه على أمته التى يهينها المستعمر تبدو من معالم

هــذا الديوان فقد ثارت فى نفســه الحمية والإحســاس بضرورة الحرية لقومــه فوقــف يدعوهم إلى اليقظة محــاولا أن يطلعهم على قوتهم التى يملكونها ولا يعرفونها وهو يهتف فيهم:

إذا الشعب يوما أراد الحيـــاة فلابد أن يستجيـــب القـــدر
ولابــد لليـــل أن ينجلـــى ولابــد للقيـــد أن ينكســـر

ودعاهم فى هذه القصيدة إلى حب الحياة والطموح والأمل.

أما موقف الشــاعر من الحياة فهو يتسم برومانسية غامرة تفيض من نفسه القصائد لا لكى تحمل مواجع الشاعر الفردية فقط، بل هو يضمنها رؤية عميقة للوجود كله يقول عن الحياة:

إن هذى الحيـــاة قيثـــارة الله وأهل الحياة مثـــل اللحـــون
نغم يستبى المشاعر كالسحـــر وصوت يخـــل بالتلحيـــن
والليالى مغاور تلحد اللحـــن وتقضى على الصدى المسكيـــن

ويبــدو أن إحساســه بالضعف قــد جعله ينظر إلى القــوة باعتبارها من القيم الأساســية للانتصار فى الحياة ســواء على المســتوى الفردى أو المستوى القومى يقول فى قصيدة «نظرة فى الحياة»:

إن الحيـــاة صـــراع فيها الضعيف يـــداس
ما فاز فــى ماضغيهـــا إلا شديـــد المـــراس

ثــم يقول عن الضعف وأظهر صورة ضعــف الإرادة الذى يقضى على الحياة نفسها:

ضعف العزيمة لحد فى سكينته تقضى الحياة بناه اليأس والوجل

وفى العزيمة قوات مسخـــرة يخر دون مداها الشامخ الجبـــل
والناس شخصان ذا يسعى به قدم من القنوط وذا يسعـى به الأمـــل

هو من حزب الأمل إذن يجسد القوة التى تسعى من أجل خير الحياة وليست القوة الغاشـمة ويأتى الحب فى مقدمة القيم التى تشكل موقف الشاعر من الحياة يقول فى قصيدة «الحب»:

الحب شعلة نـور ساحـر هبطـــت من السماء فكـانت ساطـع الفلـــق
ومزقت عن جفون الدهـر أغشيـــة وعن وجوه الليالى برقـع الغســـق
الحـــب روح إلهـــى مجنحـــة أيامه بضيـاء الفجـر والشفـــق
يطوف فى هذه الدنيـا فيجعلهـــا نجما جميلا ضحوكا جـد مؤتلـــق
لولاه ما سمعت فى الكـون أغنيـــة ولا تألف فـى الدنيـا بنـــو أفـــق
الحب جدول خمر مـــن تذوقـــه خاض الجحيم ولم يشفق من الحـــرق
الحب غاية آمـال الحيـــاة فمـــا خوفى إذا ضمنى قبرى؟ ومـا فرقـى؟

وإذا كان الحـب هو الشـعور العميق بجمال الحيـاة فإن الجمال فى شعر أبى القاسم الشابى يظل قضية أكبر من الحب. ومن هنا فهو يلتمسه لدى المرأة التى لا تمثل فى شـعره كيانا إنسـانيا واقعيا بل تمثل له كما تمثل لدى كل الشـعراء الرومانسيين عالما من الكمال العاطفى والوجدانى يكاد يكون صورة للحياة والوجود تجلياتها فى الطبيعة والمجتمع والنفس الإنسانية والروح المحلقة ومن هذا المنطلق نفهم أبعاد تجربته الفريدة فى قصيدة «صلـوات فى هيكل الحب». فالقصيدة فـى الواقع صورة لمظاهر الجمال كما تنعكس على نفس الشـاعر من ناحية وكما تتبدى فى الواقع المختلـط بعناصر كثيـرة من ناحية أخرى. فهى أقـرب إلى فن الوصف

منها إلى فن الغزل. لقد حول هذه المرأة الجميلة إلى أحد ظواهر الطبيعة الخارقة فى جمالها حتى لقد احتوت الطبيعة بدلا من أن تحتويها الطبيعة. وهى تثير فى النفس قوة المفهوم الرومانسى للجمال. فالجمال عند الرومانسى ليس عنصرا فى الطبيعة أو فى الإنسان وإنما الجمال قيمة مطلقة تشمل الوجود كله وتتجسد أول ما تتجسد فى المرأة التى هى أقرب إلى الحلم والمثال منها إلى الواقع ولهذا فالقصيدة مجموعة من التراكم الكمى الكثيف يصور المرأة كما تتبدى فيما حولها من طبيعة وقيم. وهى تجسيد بالغ الإثارة للعالم الذى كان ينشده أبو القاسم الشابى أو كان يحلم به ولنقل بطريقة واضحة أن قصيدة «صلوات فى هيكل الحب» هى الفردوس المفقود للشاعر فهو يبنى مدينة فى صورة امرأة أو امرأة فى شكل مدينة لعله يخلص ويخلص العالم كله من أحزانه وعذابه.

لهذا نرى صورة الشعرية المجسدة لمظاهر جمال هذه المرأة فى معظمها تدل على قيم أكثر تجاوزا لعالم الواقع. فهو يبدأ بالصور المعنوية وكأنه لا يتحدث عن امرأة بقدر ما يتحدث عن معبد من معابد الجمال يقول:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد

وحتى الصور الحسية مثل السماء الضحوك والليلة القمراء والورد وابتسام الوليد والطهارة والرقة والقداسة هى كلها رموز لعالم أكثر منها رموزا لامرأة. ولنتجه مباشرة إلى صورة المرأة – العالم – فى هذه القصيدة كما يصورها الشاعر بصراحة مباشرة.

يقول أبو القاسم الشابى:

أنت.. أنت الحياة فى قدسها السامى وفى سحرها الشجى الفريد
أنت.. أنت الحياة فى رقة الفجر وفى رونق الربيع الوليد
أنت.. أنت الحياة كل أوان فى رواء من الشباب جديد
أنت.. أنت الحياة فيك وفى عينيك آيات سحرها الممدود
أنت دنيا الأناشيد والأحلام والسحر والخيال المديد
أنت فوق الخيال والشعر والفن وفوق النهى وفوق الحدود
أنت قدسى ومعبدى وصباحى وربيعى ونشوتى وخلودى

وهذه صورة رومانسية الوجدان أقرب إلى وجدان الصوفى الذى تعلق بالمطلق وقد كانت حياة أبى القاسم الشابى ترشحه لهذا المطلق لأنها كانت مكتظة بتفاصيل الألم فأراد لها النجاة عن طريق الجمال المطلق والجمال فى هذه القصيدة ليس معناه الانسجام العضوى والنفسى والروحى للكائن أو الطبيعة وإنما الجمال هنا جماع القيم كلها من طهارة وخلود وقداسة وسعادة.. فالشاعر يرى أن الجمال ليس إلا المظهر الحسى لكل ما هو خير للإنسان وللحياة. فالسعادة جميلة والخلود جميل والطهارة جميلة. بمعنى أن صفة الجمال هى موجز لكل الصفات الطيبة فى الحياة.

هذا هو جوهر موقف أبى القاسم الشابى من الوجود وهو يلتقى فيه مع كبار الشعراء الرومانسيين فى العالم كله وهو سر عبقريته، فقد استطاع أن ينفذ من الخاص فى حياته إلى العام فى الحياة كلها من الألم إلى الحرية ومن الحزن إلى الجمال المطلق ومن الشقاء إلى الخلود. ولا ينتهى الحديث عن عالمه الشعرى المتدفق ولكن حسبنا فى هذه المناسبة أن نشير إلى هذا العالم المثير الفياض بالألم والجمال.